

النفس وخلودها عند ابن سينا

للدكتور ابراهيم بيومي مذكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٢ —

يدرس ابن سينا النفس من نواح كثيرة، فيحاول أولاً أن يثبت وجودها ومغايرتها للبدن، ثم ينتقل بعد هذا إلى حقيقتها فيعرض لجوهريتها وروحيتها ويبرهن على خلودها ببراهين شتى ووسائل متعددة. ولن تفهم حقيقة النفس فهما كاملاً إلا إذا حددت وظائفها وبين في دقة عملها. وابن سينا يتحدث طويلاً عن أنواعها المختلفة من نباتية وحيوانية وإنسانية، ويسهب بوجه خاص في حديثه عن قوى النفس الانسانية الظاهرة والباطنة. وهذا الجزء يلخص تقريباً علم النفس عنده. وواضح أن مشكلة العقل التي تعد أحد الأحجار الأساسية في بناء الفلسفة الإسلامية والتي شغلت فلاسفة القرون الوسطى على العموم، تتصل اتصالاً وثيقاً بقوى النفس الباطنة، وستتبع هنا الخطوات السابقة لتدل بفكرة كاملة عن أبحاث ابن سينا في النفس، ولكننا سنجمل القول في أقسامه وتفصيلاته الكثيرة المتصلة بأنواعها وقواها لأن هذا في أغلبه أصبح من علم النفس البائد، وسنكتفي بأن نشير منه إلى مصادره اليونانية. وأما مشكلة العقل فهي من الأهمية بحيث لا تدرس عرضاً وفي ثنايا بحث كهذا، ولا بد لها من دراسة مستقلة سبق لنا أن حاولناها في كتابنا عن الفارابي^(١)

لم يعن مفكرو اليونان كثيراً بالبرهنة على وجود النفس، وكأنهم كانوا يعدون وجودها واضحاً بحيث لا يتطلب الإثبات، ومسلباً به إلى درجة لا تقبل الشك أو المناقشة. فالماديون منهم والروحانيون متفقون على وجود النفس، وخلافهم فقط في بيان ماهيتها وتحديد وظائفها. وأطباؤهم وفلاسفتهم مجمعون على أن للظواهر النفسية مصدراً وأصلاً تعتمد عليه بجانب الجسم. وعلى هذا يمكننا أن نقول إن المادية المتطرفة التي ظهرت في القرنين

الثامن عشر والتاسع عشر والتي تنكر وجود النفس شيئاً غير معروفة لديهم. ذلك لأن هذه المادية أثرت من آثار الطب وعلم وظائف الأعضاء الحديثين، وكل منهما أن تفسر الأحوال العقلية جميعها تفسيراً واقعياً تجريبياً، وفي اعتقاد أنصارها أن المخ والجهاز العصبي كفيلا بتوضيح كل أعمال الفكر السامية. لهذا نراه يصرحون بأنه «لا تفكير بدون الفسفور»، وأن «المخ يهضم الاحساسات بشكل ما ويفرز عصارة التفكير افرازاً عضوياً»^(٢) وما كان الطب متقدماً عند اليونان تقدمه في التاريخ الحديث، ولا كانت وظائف الأعضاء واضحة وضوحها اليوم

ومن الغريب أن ابن سينا الذي تقبل كل مبادئ الطب وعلم وظائف الأعضاء اليونانيين قد عنى عناية خاصة بالبرهنة على وجود النفس وإثبات أنها تغاير البدن. ولعل ذلك راجع إلى أن بعض الماديين قد غالوا مغالاة الماديين المحدثين وتطوفوا تطرفهم، فوجدوا بين النفس والجسم أو أنكروا وجودها رأساً واعتبروا الجسم مبعث الظواهر العقلية على اختلافها. فلم يردأ من أن يرد عليهم ويبين خطأهم، وقد أشار إليهم صراحة في إحدى رسائله^(٣). وفوق هذا فالمنهج القويم في رأيي يقتضي أن يبدأ الباحث بأثبات وجود النفس ثم ينتقل بعد هذا إلى شرح وظائفها وأعمالها. يقول: «من رام وصف شيء من الأشياء قبل أن يتقدم فيثبت أولاً أُنْيَتَه (يعني وجوده) فهو معدود عند الحكماء من زاعغ عن محجة الايضاح. فواجب علينا أن نتجرد أولاً لأثبات وجود القوى النفسانية قبل الشروع في تحديد كل واحدة منها وإيضاح القول فيها»^(٤)

وهو في برهنته على هذا الوجود يسلك سبلاً عدة ويستخدم وسائل متفرقة. فيلجأ تارة إلى العرف العام والاستعمالات الدارجة مستمداً منها بعض الملاحظات الدالة على أننا نؤمن بوجود حقيقة فينا تخالف الجسم. ويركن تارة أخرى إلى بعض القضايا الفلسفية

(١) Cabanis, (Rapports du physique et du moral), P. 138.

(٢) ابن سينا، (رسالة في معرفة النفس الناطقة وأحوالها)، ص ٨.

(٣) ابن سينا، (رسالة في القوى النفسانية)، ص ٢٠.

(٤) Madkour, (La Place d'al Fārābī), P. 122-180

المسئلة من القداحى ليستعين بها على تحقيق هذه الغاية . ويبتكر أحيانا فروضا وتعليلات دقيقة تقربه من بعض الفلاسفة وعلماء النفس المحدثين . فيلاحظ أن الانسان اذا كان يتحدث عن شخصه أو يخاطب غيره فانما يعنى بذلك النفس لا الجسم . فحين تقول : أنا خرجت أو أنا نمت لا يخطر ببالك حركة رجلك ولا اغماض عينيك . بل ترمى الى حقيقتك وكل شخصيتك . وقد صاغ ابن سينا هذه الملاحظة على الصورة الآتية : ان الانسان اذا كان منهمكا في أمر من الأمور فانه يستحضر ذاته حتى أنه يقول إني فعلت كذا أو فعلت كذا ؛ وفي مثل هذه الحالة يكون غافلا عن جميع أجزاء بدنه . والمعلوم بالفعل غير ماهو مغفول عنه ، فذات الانسان مغايرة للبدن .^(١) . وإنا لنلمح في ثنايا هذه الملاحظة فكرة الشخصية أو فكرة « أنا » (l'idée du moi) التي هي مثار بحث طويل بين علماء النفس المعاصرين . فالشخصية أو « الأنا » في رأى ابن سينا لا يرجع الى الجسم وظواهره ، وانما يراد به النفس وقواها

ومن جهة أخرى تدبر علينا آثار لا يمكن تفسيرها إلا إن سلمنا بوجود النفس ، وأهم هذه الآثار الحركة والأدراك . فأما الحركة فضربان : قسرية ناتجة عن دفعة خارجية تصيب جسما ما فتتحركه ، وغير قسرية وهي التي تتصل بنا هنا . وغير القسرية هذه منها ما يحدث على مقتضى الطبيعة كسقوط حجر من أعلى الى أسفل ، ومنها ما يحدث ضد مقتضى الطبيعة كالانسان الذي يمشى على وجه الأرض مع أن ثقل جسمه كان يدعو الى السكون ، أو كالطائر الذي يحلق في الجو بدل أن يسقط الى مفره فوق سطح الأرض . وهذه الحركة المضادة للطبيعة تستلزم محركا خاصا زائدا على عناصر الجسم المتحرك ، وهو النفس . وأما الإدراك فأمر امتازت به بعض الكائنات على بعض ، واذن لابد للكائنات المدركة من قوى زائدة على غير المدركة^(٢) . هذا هو البرهان الطبيعي السيكلوجي الذي يعتمد عليه ابن سينا في اثبات وجود النفس . وهو كما لاحظ لانداور مستمد في أغلب

أجزائه من كتابي « النفس ، والطبيعة ، لأرسطو »^(١) . ففي الكتاب الأول يصرح الفيلسوف اليوناني بأن الكائن الحي يتميز من غير الحي بميزتين رئيسيتين : هما الحركة والاحساس^(٢) . وفي الثاني يقسم الحركة الى أقسام عدة لم يعمل ابن سينا شيئا سوى أن رددها وبني عليها برهته السابقة^(٣) . بيد أن هذه البرهنة ، فوق أنها برهنة باللازم ، غير مقنعة وخاصة في جزئها الطبيعي . فانه لو كانت الأجسام كلها مكونة من عناصر متحدة لكان لهذه البرهنة قيمتها . فأما وهي مختلفة التكوين فلا مانع من أن الجسم الذي يضاد الطبيعة العامة بحركته متمش مع قوانين طبيعته الخاصة ومبتمل على عناصر تسمح له بالحركة . وكمن جهازا وآلات تتحرك حركات مضادة للطبيعة ولا يخطر ببال أحد الآن أنها تحتوى على نفس أو قوة خفية أخرى ، وقد انقضى الزمن الذي كانت تعتبر فيه النفس أصل الحياة والتفكير في آن واحد ، أو مصدر الحركة والإدراك ان شئنا أن نستعمل لغة ابن سينا ، وأصبح علماء الحياة يفسرون الظواهر الحيوية تفسيراً آلياً أو « ديناميكياً » ، بمعزل عن القوى النفسية تاركين للنفسين توضيح النفس وظواهرها ، وهؤلاء الآخرون حتى الممغنون في الروحية منهم لا يذهبون اليوم مطلقاً إلى أن للنفس عملاً فوق الظواهر العقلية ويتقبلون التفسير الآلي للحياة والحركة . ويظهر أن ابن سينا قد تنبه إلى ضعف برهته بدليل أنه لم يطالب فيها إلا مرة واحدة وفي مؤلف تقوم كل الدلائل على أنه كتبه في صباه^(٤) . أما في « الشفاء » و « الأشارات » وغيرهما من مؤلفات الشيخوخة : فانه يمر بها مسرعاً ويحاول أن يثبت وجود النفس معتمداً على آثارها العقلية ؛ وهذه هي البراهين التي تدل على البقرية والابتكار . فيلاحظ أولاً أن في الأحوال النفسية تناسقاً وانتظاماً يؤذن بقوة مهيمنة عليها ومشرقة على نظامها ، وهي برغم تنوعها

(١) Landauer, (Die Tsychnologie des Ibn Sinâ), P. 376-77.

(٢) Aristote, (De l'ame), I, 2, 403 b 125.

(٣) Aristote, (Physique), V 177, 4, 431 a, 30.

(٤) Landauer, (arr. cité), P. 336-338.

لندريك ، (رسالة في القوى النفسية لابن سينا) ، ص ٩ - ١٢ .

(١) ابن سينا ، (رسالة في معرفة النفس الناطقة) ، ص ٩ .

(٢) ابن سينا ، (رسالة في القوى النفسانية) ، ص ٢٠ - ٢١ .

نزل وانتقص قريب من ربع بدنه . فتعلم نفسك أن في مدة عشرين سنة لم يبق شيء من أجزاء بدنك ، وأنت تعلم بقاء ذاتك في هذه المدة ، بل جميع عمرك . فذاتك مغايرة لهذا البدن وأجزائه الظاهرة والباطنة ^(١) . وفكرة استمرار الحياة العقلية واتصالها من الأفكار التي أثبتتها حديثاً ولیم جيمس وبرجسون وعداها من أخص خصائص الظواهر النفسية ومن أكبر الدلائل على وجوده الأنا ، أو الشخصية . وفي رأيهما أن تيار الفكر لا يكون فيه ولا انقسام ولا انفصام ، وهو في حركة متصلة مطردة . وما أشبه الحياة العقلية بقطعة موسيقية مكونة من نغمات مختلفة ومتميزة قد امتزجت واختلط بعضها ببعض فأتتجت لتأمنسقا ^(٢) يقول جيمس : « من الصعب جداً أن نجد في شعور واقعي حالاً نفسية مقصورة كل القصر على الحاضر بحيث لا نستكشف فيها أى شعاع من أشعة الماضي القريب » . ^(٣) فابن سينا يبرهانه المتقدم يسبق عصره بعدة أجيال ويدل بآراء يعتد بها علم النفس الحديث كل الاعتداد

(يتبع)

ابراهيم مكرم

(١) ابن سينا ، (رسالة في معرفة النفس الناطقة) ، ص ٩ .

(٢) Bergson (Evolution créatrice), P. 3.

(٣) James, (Principles of Psychology, I, P. 206.

اُدْرِفْلَمُ

لبنان كوشستان الفرنسي

عزبة الذكوة حسن طازي

أولئك الذين انقلبوا لأشياء وأصبحوا في سائر قنا ككل فإني أعزيتهم
نفسه فهو كمال الذكوة في سائر قنا ككل فإني أعزيتهم
بكتاب عظيم في سائر قنا ككل فإني أعزيتهم

وتمت ٢٠ وتطلب من المكتبة الجزائرية الكبرى بمصر
والعكاش الكريمة الأخرى

وتخالقها بل تنافرها أحياناً تدور حول مركز ثابت وتصل بمبدأ لا يتغير ، وكأنها مرتبطة برباط وثيق يضم أطرافها المتباعدة ، فنس ونحزن ، ونحب ونكره ، وننق ونثبت ، ونحل ونركب ، ونحن في كل هذا صادرون عن شخصية واحدة وقوة عظمى توفق بين المختلف وتوجد المؤلف ؛ ولو لم تكن هذه القوة لثضاربت الأحوال النفسية واختل نظامها وطمى بعضها على بعض . وما النفس من آثارها إلا بمنزلة الحس المشترك من المحسوسات المختلفة ؛ كلاهما يلم الشعث ويعت النظام والترتيب ^(١) .

وهنا يشير ابن سينا إلى ذلك البرهان المشهور الذي كثيراً ما رده أنصار المذهب الروحي من علماء النفس المحدثين . ويتلخص في أن وحدة الظواهر النفسية l'unité des faits تستلزم أصلاً تصدر psychiques عنه وأساساً تعتمد عليه ^(٢) . وضعف هذه الوحدة أو انعدامها معناه ضعف الحياة العقلية أو القضاء عليها

يدنو ابن سينا من المحدثين ، بل ومن المعاصرين بشكل أوضح من هذا في برهان آخر يصح أن نسميه برهان الاستمرار . وملخصه أن حاضرننا يحمل في طياته ماضينا وبعد لمستقبلنا ، وحياتنا الروحية هذا الصباح ترتبط بحياتنا أمس دون أن يحدث النوم أى فراغ أو انقطاع في سلسلتها ، بل وترتبط بحياتنا منذ أعوام مضت . ولئن كانت هذه الحياة متحركة ومتغيرة فانما تتحرك في اتصال وتغير في ارتباط . وليس هذا التابع والتسلسل إلا لأن أحوال النفس فيض معين واحد ودائرة حول نقطة جذب ثابتة . يقول ابن سينا : « تأمل أيها العاقل في أنك اليوم في نفسك هو الذي كان موجوداً في جميع عمرك حتى أنك تتذكر كثيراً مما جرى من أحوالك . فأنت إذن ثابت مستمر لا شك في ذلك . وبدنك وأجزاءه ليس ثابتاً مستمراً بل هو أبداً في التحلل والاتقاص ... ولهذا لو حبس عن الإنسان الغذاء مدة قليلة

(١) ابن سينا ، (رسالة في معرفة النفس الناطقة) ، ص ٩ - ١٠ .

(٢) (الشفاء) ، ج ١ ، ص ٢٦٢ = (النجاة) ، ص ٢١٠ - ٢١٢ والاشارات ، ص ١٧١ .

(2) Ribot, âme dans (La Grande Encyc).